على أعتاب رواية أسير الثلج
للروائي المبدع: كمال صبح

هل صادفك عزيزي القارئ ما صادفني من قشعريرة باردة في الروح وأنت بين يدي رواية..؟
هل حدث معك عزيزي القارئ ما حدث معي وأنا أتلقى طعنات الحقيقة على هيئة شخوصٍ صنعها روائي، مجرد روائي، عبث بمكوناتٍ من صنع خيالاته، ألبسها عظماً وأثواباً ونفخ فيها من روح البوح ولم تصمت، رغم أنّي مصفحةٌ بالصوف وفولاذ البلادة وجلد التوقع..؟
هذا ما حدث معي تماماً وأنا أختبئ مع رواية أسير الثلج، على أريكتي البنية، ملفعةٌ بالفرو الذي يداري قشعريرة الروح التي أنهكتها الشخوص المنهكة أصلاً... أقرأها بعين كاتبةٍ تدرك مكنونات اللغة، وبعقل بدويةٍ تعرف جيداً نكهة مذاقات الوجع..
أعترف في البدء.. أنني لم أكن على توقعٍ لمضمون ما سينثال بين يدي من استرسال محموم، كنت أظنني سأتناول وجبة فكرية أدبية تشي بصاحبها العميق الدمث كثير الصمت، توقعتها هادئة كحضور الواثقين، وألفيتها زاخرة بالدهشة الرمادية، بوجع الاغتراب، برائحة الأرواح التي احترقت حين هاجرت الهجرة التي صبغت الكرة الأرضية بصباغ الفقد، بانكسار الأرواح، وترهل الأحلام، وبصدأ مفاتيح البيوت التي ما فتئت تدق جدران الخزانات في حجرات القلوب جميعها، منذ الهروب الأول تجاه المجاهيل الكثيرة، التي صنعت لكل هاربٍ حكاية لا تشبه سواها في المضمون والحبكة، وإن تشابهت جميعها في أنها .. كلّها عقدٌ بلا حل.. فالنكبة ترحت الجروح مفتوحةً على مصارعها، لم تغلقها المنافي ولا مدن النزوح، ولا خيام اللاجئين التي مرسومٌ على قماشها شعار الأونروا المسخ..
إبراهيم كان ضحية النكبة، ضحية ضياع بحر يافا، وأفول شمس الصباحات الدافئة، ترنح كغيره من الهاربين بعكس اتجاه البحر، للبابسة الصلداء، لتكوّن شبحاً يسير على قدمين تصفعه الفاقة، ويستأسد عليه صاحب العمل، وحدها فاطمة شريكته في الوجع تهديه زنبقة بستانه الأجرد.. ريم، التي تتمرد في بلاد الغربة على اسمها السلس، وتضيف حروفاً أخرى عليه لتفسد بهجة الشرق المتجسدة في الراء والياء والميم والتي كان لفضاءات التاريخ والبوادي حظوةً كبرى في الاسم، فالريم توصيف الحسن الباذخ، وغزالة الصيادين الصابرين، ووحي الشعراء... في الغربة الباردة أصبحت الريم .. ريموندا، فكان الانزلاق العنيف من أرجوحة التقاليد، والانسلاخ التدريجي عن بلاد الشمس والتماهي مع دهاليز الثلج..

ابراهيم الذي ترك إرثه كله متجسداً في مذكراتٍ موجعة، تزامنت تماماً مع خطٍ دراماتيكي لتفاصيل حياة يوسف ابنه الوحيد وريموندا ابنته الوحيدة، تشابهت فيها القصتان في تصاعد الخط الدرامي نحو الهاوية، تلك الهاوية التي سار لها الأب باختياره الجبريّ منذ الهجرة للنرويج، وسار فيها الابن يوسف دون حولٍ ولا قوة، لكونه لم يختار المكان، ولا اختار الاغتراب، وعاش دون قضية، ودون جذورٍ يدري بها، ضائعاً بين قوميتين، يكتشف تاريخه من خلال ترجمةٍ للغته الأصلية، بتصرف، تُلقى على مسامعه حسب مزاج مترجمته التي هي أخته التي رغم أنها شاهدة على معظم الحكاية إلا أنها منسلخة عنها بفعل التماهي في الاغتراب.. فهالدن صادرتها من ذاتها، انتزعتها من كل ما كان عالقاً في الذاكرة البحرية المنفتحة على الشمس...

مابين جوناس إبراهيم، وإيلين يوسف، تواطؤٌ خبيثٌ عصف ببطلي الرواية، فجوناس التي سحقت كبرياء إبراهيم ولعنت حضارته، وسخرت من قوميته وتخلف شرقيته، قابلها بالمعادل الموضوعي إيلين اليهودية التي سحقت كرامة يوسف حيث استدرجته بقصد للهجرة إلى تل أبيب، بل وقامت بتسجيل ابنهما اسحق كيهودي الديانة وزرعته في إسرائيل التي يقطنها العابرون في حين أنه من صلب صاحب البلاد الأصلية، المتغرّب عن كل شيء، الفاقد لكل شيء، والذي يدور في فلك الضياع والاغتراب الثلجي...

وحدهما سيدتا الرواية الرابضتان كربوتين في سهول يافا، فاطمة الزوجة الأولى لإبراهيم، وإيمان الزوجة الثانية، هما من جسدتا الحب والدفء ووحدهما من استحقتا براكين الشوق، وقوافل الدمع، هما امتداد للجدات القابعات على أثوابهن يطرزنهن بخيوط الصبر وإبر التمني.... لذلك كان لابد لإبراهيم الذي استنجد بالأغنيات العربية أن يلهث في الحانة الباردة كي يلملم ثمن تذكرة العودة حيث ما تبقى من ضفائر لم يخالطها الشيب، وما تبقى من امرأة أظنها كانت بانتظاره...

يوسف النرويجي الجنسية، الفلسطيني الأصل، والذي يحتاج لمترجمةٍ كي تفك طلاسم العربية في مذكرات أبيه جسّد الضحية الموقوتة، الضحية التي سيقت إلى الإعدام المعنوي بكامل الصلف والأمل، دون أن تدري بأنها تساق للموات الذي يطيل البقاء على ذمة الموت... فهو الموزع بين قوميتين الأولى انتزعت تداعيات النكبة فيها ابنه بشهادة ميلادٍ حاقدة، والثانية انتزعته من ذاته لتلقي به عاملاً في كافتيريا الجامعة، يلهث خلف إرضاء سيدةٍ تلهث هي وأهلها خلف بلاد الحلم المقدس، تلك البلاد التي زعم عرّاب نخاستها بأنها أرض بلا شعب يجدر بها شعبٌ بلا أرض... يوسف الذي وجد ذاته أخيراً في منطقة العجمي بيافا، بجواز سفره النرويجي، في حوش زوجة أبيه إيمان، وحيث قبر والده إبراهيم، هذه الذات التي لم يستطع تجميعها، ولم تفلح في غرسه في وطنه وبلده حين انتزعت إيلين زوجته ابنه اسحق منه بشهادة ميلادٍ فرضت أن يكون في خانة الديانة أن يكون المولود يهودياً- وكل ما فعله حينها فقط .. هو حمل حقيبة سفره الجاهزة والتوجه للمطار... في استسلامٍ باردٍ ثلجي موجع حد البكاء...

فاجأني البكاء حقيقةً وتلعثم كبريائي دون قصدٍ مني حين بان عوار ضعف إبراهيم والد يوسف وريموندا التي كان اسمها ريم، حين تسلل ليراقب ابنته التي ذهبت لزيارة صديقها النرويجي الاصهب كما كان يسميه، حين تحدته وفق قانون الحرية الشخصية الذي يتيح للفتاة الحرية المطلقة، ويعاقب من يقترب منها وينتهك خصوصيتها، حتى لو كانت هذا الخصوصية وممارستها هي سحق لكرامة والدها الشرقي، خرق لتابو الممنوع والحرام والغير مقبول، فما بالك لو كانت هذه الممارسات تتم أمام عينيه وفي وضح النهار، وهو القادم من يافا العجمي، بكبرياء أسيادها، وشرف رجالاتها، وخفر أميراتها، وعفاف سكانها، كان صعباً عليّ تلمس جرح الكرامة في روح إبراهيم حقيقةً وهو يدفع فاتورة الغربة، فاتورة الحياة لدى قوميةٍ لا تشبه قوميته، قوميته المصونة بعجرها وبجرها كيفما كانت، لعلّي أصدق في الوصف لو قلت: لقد سمعت بإذنيّ قلبي تهشم زجاج روح إبراهيم، لقد كان لمذاق حزنه نكهة لا يشبهها سوى رائحة النكبة.. أما ريم تلك الصبية التي تأرجحت على حدود السيف بدءاً بموت فاطمة أمها، مروراً بحياتها لدى الطيبة إيمان، ثم الرحيل والهجرة لهالدن، والحياة لدى جوناس، والضياع مع صديقها النرويجي الذي تزوجها في نهاية الرواية بعقد زواجٍ مدني يخالطه الحرام فهي المسلمة وهو الكتابي، وزواجهما حسب شريعتنا باطل بالأساس...

رواية أسير الثلج تفتح الباب على مصراعيه للتساؤلات المشروعة حول الاغتراب، إشكالية التماهي مع المكان على حساب المفاهيم، على الانسلاخ من القضايا التي تتبلور حولها الكائنات، رواية تجعل الأماكن التي قد نراها جنة الله على الأرض ماهي إلا غول يبتلع الطيبين ويعيد تدويرهم لأشكال لا قوام لها، مرنة كما يشاء الانبطاح، أو كما يشاء التلاشي، أو كما تشاء الريح، هذه الرواية تجعلك على دراية بكيفية حصول الهزائم الصغيرة التي تتدحرج ككرة الثلج رويداً رويداً إلى أن تتحول لسدٍ صلبٍ طويلٍ أفقي رأسي دائري فاغر الفاه.. يبتلع أي محاولة للخلاص، رادماً المدفئة والحطب، مشعلاً الجليد في أركان الوجدان..

رواية أسير الثلج رواية قاسية، زادتني التصاقاً بأرض البحر والشمس، زادتني تجذراً حول قوميتي، جعلتني جميلة في نظر ذاتي كفاطمة، و كإيمان... هذه الرواية جعلتني للأسف أرى في كلِ مهاجرٍ ترك أرض الرباط إلى بلاد العسل والنبيذ على أنه سيبقى طوال عمره... مجرد أسير للثلج..

تقديري لا ينتهي..

د. كفاح الغصين